نخلة في حديقة الشعر الإسلامي

نظرة في ديوان «تقولين»

للشاعر محمود بن سعود الحليبي

د. عبدالرزاق حسين* - الأردن

بصدور ديوان (تقولين) تربو حديقة الشعر الإسلامي، وتزهو بنخلة تعلو مصعدة، وهي تتمايل بسعفها وأعذاقها ورطبها.

هذا الديوان[1] له قامة لفاتنة من فاتنات الشعر، تغريك معنى ومبنى، وتظهر لك فتنتها، وجمال قامتها من خلال مجموعة أدوات أسلوبية استخدمها الشاعر، ولعل في عرضها ما يتيح لنا تبين الطاقة الشعرية المعبرة من خلال القصيدة الأصيلة، أو من خلال استخدام شعر التفعيلة.

الأسلوب الحكائي المعتمد على الحوار الموفق من خلال ثنائية تتم في غالب الأحيان بين الشاعر والمحبوبة، وهذا الخطاب المستمد من التراث يستولي بقوة على أعنة قصائده، فسؤال الشاعر لصحبه أو لصاحبيه ذلك المفتاح الذي يعتمده لفتح مغاليق القول لينسرب من خلاله ويعبر دهاليز الفكرة أو الموضوع، هو المفتاح الذي يستخدمه شاعرنا في كثير من بدايات قصائده.

فالاتكاء على المحاور أو خطاب الآخر هو ما اعتمده الشاعر أسلوباً للبناء،وطريقاً للبوح والإفضاء والتصريح، فهو يخاطب شعره في (مدينة الشعر) ص١١:

أمتَ شعري أم ماتت أحاسيسي
أم غيض زيتك فاسترخت فوانيسي

وهو يسائل محبوبته في (هجرت رسائلي)ص١٣:

صددتِ وما وصلت ولو لماما
كأنك قد تعودت الخصاما

ويلحُّ عليها أن تسأله في (هي) ص٦٠:

سليني ما أردتِ فما فؤادي
غداة رآك إلاّ واستجابا

ويطلب من صاحبه أن لا يسأله في (القمة) ص٧٣ وهو في الحقيقة يحثه على السؤال:

لا تسألني من أنتَ
بمناجل أحرفي النشوى حطمت جدار الصمتْ

ولعل الشاعر القديم يتمثل لنا عياناً في شكل بعث إحيائي، أو تناصٍ شعري، حيث يجعل الشاعر من خطابه للمرأة وحوارها معه، وحواره معها، وسيلة تعبيرية، يحاول من خلال ذلك توضيح رؤيته، وتبيان موقفه، أو تبريرفعلته، فالمرأة التي تحاور الشاعر أو تخاطبه، أو تستجوبه، وتسائله، أو تحاول منعه ودفعه عن أمر، هي هناك كما هي هنا.

وقد اعتد شاعرنا المرأة محاوراً رئيساً وأصيلاً، ومن هنا كان اعتماد عنوان الديوان (تقولين) بسبب من هذا الإلحاح التبريري لعاطفة كامنة، استثارتها

محمود بن سعود الحليبي

دواع عدة، ويظهر ذلك من قصيدة (لغيري تغني الحرف) التي أخذ الديوان عنوانه من بدايتها، حيث يقول:

تقولين قاس أنت لست بشاعرٍ
ولا لمست يوماً رؤاك مشاعري
وحبي ما أوحى إليك قصيدة
ولا أدركت عيناك سحر بيادري

ويكرر هذه البداية في قصيدته (غصون الفجر) ص٦٦ المهداة إلى الشيخ أحمد المبارك:

تقولين نم فالليل أمسى مودعا
وكادت غصون الفجر أن تتفرعا

وعلى هذا المنوال يستمر النسج، حتى يغدو النغم الرئيس، والعمود الأساس للبناء الشعري في هذا الديوان.

ويتأكد ذلك باستخدام الشاعر لأبيات مشهورة للنابغة الذبياني:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني
وتلك التي أهتم منه وأنصب

فيحورها الشاعر تحويراً لطيفاً، فيقول:

أتاني أبيت اللوم أنك لمتني
وأنك يا عيني سقيت بنا مرا

ولوم العاذلة كما هو عند حاتم الطائي وغيره، كما في قول القائل:

وعاذلة هبت بليل تلومني

فيقول شاعرنا:

أعاذلتي أسأت الظن عفوا
فلا هنداً عشقت ولا ربابا

وقوله:

أقلي عليَ اللوم يا أم صبيتي
فإني امرؤ ما عاد إن قلبه سعى

وهذا شبيه بقول الشاعر القديم عروة بن الورد:

أقلي علي اللوم يا ابنة منذر
ونامي وإن لم تشتهي النوم فاسهري

- ومن الأدوات الأسلوبية التي تجعل للمرأة حضوراً قوياً ما استخدمه الشاعر من أساليب الأمر والنهي، التي تكاد تكون ظاهرة أسلوبية في هذا الديوان، وتمثل كماً واضحاً، ولتتبين ذلك خذ هذه الأمثلة: (صدي، اهجري، ثوري، خذي مشاعري، اجعليها لعبة، تيهي، صعري الخد، اتركي، تكلمي، الحقي، اصرخي، عاتبي، ابني، أوقدي،لا تكتمي، لا تتأسفي، لا ترحمي، لا تتواضعي) هذا الأسلوب الآمر الناهي لم يكن لبنة من لبنات البناء، وإنما تحول ليصبح معلماًمن معالمه، مما يوحي بشيء من العنفوان الذي لا يحبذه العاشقون، فالعاشقة هي الآمرة الناهية.

والحضور القوي للمرأة لا يتوقف عند الحوار والألفاظ، وإنما يمتد للموضوعات والأفكار حتى تغدو هي المحرك الأساس للمشاعر، بل هي الملهمة، وسر الموهبة، كما في قصيدة (غضبى أحبك) ص٣٤:

ما أنت في معبدِ تحيين راهبة
ولا اقتنيتك تمثالاً ولا نصبا
بل أنت وقدة فكري.. ريش أجنحتي
زوادتي إن جهلت الدرب والشهبا
وأنت ضوء حروفي.. سر موهبتي
وأنت.. أنت التي ألهمتني الأدبا

ويبقى هذا الحوار المشكل تشكيلاً قصصياً، قوي الربط، جميل العرض، وتبقى خيوط السرد متماسكة متآلفة في يد نساج ماهر مؤهل، فيها سلاسة الطرح، ووضوح الرؤية، و هذا ما نحسه في انتقالنا من بدء الحوار وحتى إغلاق بوابة القصيدة،

إلاّ أن العود على البدء في نهاية بعض القصائد كما في(لغيري تغني الحرف، وغصون الفجر) يظهر أن التبرير الوحيد له هو، إطالة أمد البوح، وإرخاء العنان للقول.

- معلم آخر من معالم أساليب هذا الديوان التكرار الذي صار لازمة من لوازم البناء، فالشاعر يكرر:اللفظ والمعنى والعبارة والشطر بطريقة النفث العاطفي، وكأنه حين يزفره متوالياً يعطي الفكرة القوة بإلحاحها على العين والسمع، ففي قصيدة (على مرفأ الأحزان) ص٢٤ تتكرر لفظة ربما:

ربما استعذبت حرفي
ربما هزك نبضي
ربما شفك جرحي
ربما راقك شجوي

ويظهر ضمير المتكلم نفياً وإثباتاً في القصيدة ذاتها:

أنا لا أحفر قبرا
أنا لا أنحت حرفي
أنا لا أسكب عطري
أنا لا أقرأ شتما

وبعد هذا النفي يأتي الإثبات:

أنا قيثارة حسن
أنا نبع من حنان
أنا رحال رمتني
إنني أغزل حرفا
إنني أنسج حلما
إنني أنفث سحرا

وتتكرر أدوات الاستفهام مثل: أين؟ في (وراح جدي) ص٤٠ ، والأفعال والأسماء والصفات والحروف، وأوضح دليل على غلبة هذه اللازمة التكرارية الفعل (اضحك) وما تصرف منه في قصيدة (ضحكات ترسم الأمل)ص ٤٣ ، حيث ورد ثماني عشرة مرة، وضمير (هي)ص٦٠ ورد ثلاث عشرة مرة، ويظهر التكرار في

أغلب قصائده كوظيفة لزفر المخزون العاطفي، ومع غلبته إلا أنه ظلّ يؤدي وظيفته في الأداء الإيقاعي، بل ظل موظفاً ومؤهلاً ليعطي مواصفات التكرار الملائم في البناء والفكرة والأسلوب، وإن أوحى بارتياح الشاعر إلى تكأة تمد عليها القصيدة رجليها، وتلتقط أنفاسها.

- ومن الشواهد البارزة كذلك الاقتباس الذكي بتذويب معاني قصائد لشعراء سابقين حيث يسبك أفكارهم، أو بعض معانيهم بطريقته وأسلوبه، فتموج حقلاً جديداً وبناءً مجدداً، وإن بقيت بعض علامات تلوح لتدل على الأثر الذي سار عليه، أو البئر الذي استقى منها، ويظهر ذلك في قصيدة (قراءة في جدران حارتنا القديمة) ص٦٩، حيث تتمثل لنا نازك الملائكة من وراء ستار في قصيدتها المعروفة بعنوان (خائفة) وهي تقول:

ارجع فالليل تثير مخاوفه قلقي
وأنا وحدي والنجم بعيد في الأفق

ويقول الحليبي:

صمت في صمت
وجراح تنمو وجراح

وفي(عيناك والربيع) تطل قصيدة (عيناك) لبدر شاكر السياب، فإذا قال السياب:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

فالحليبي يقول:

عيناك حلوتان رشفتا عسل
غمامتان لذ فيهما الكسل
عيناك وردتان نامتا على وسائد الخجل
عيناك نغمتان تسرحان في قيثارة الأمل

وأخيراً فالناظر المتوسم في هذا الديوان يتملى من معالم أخرى، وشحت بناءه، فالرقةالعذبة، والعاطفية الحنونة،تتمثل في هذا الفيض الغامر من حب عارم لأسرته، وشدة التصاقه بها وحدبه عليها.

كما يتأكد من صدق انتمائه لدينه وأمته، فقضايا الأمة تهيج بلابله، وتقض مضجعه.

أما إحساسه بالغربة النفسية، وانتسابه للحزن فيضفي مسحة معاناة تجعله أكثر انفعالاً وحرارة.

وبتكثيف الموقف الشعري من خلال خلاصة أوقفل محكم، واعتداد بالتصوير والتلوين، ونقاء الإيقاع، وحضور لغوي مهذب، تكتمل أدوات القصيدة في ديوان (تقولين) ■

الهوامش:

* أستاذ الأدب بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن في الظهران - السعودية.

(١) صدر عن نادي المنطقة الشرقية الأدبي في المملكة العربية السعودية لعام ١٤٢٢هـ الموافق لعام٢٠٠٢م، يتضمن ثلاثاً وثلاثين قصيدة، ويقع في ٩٥ صفحة من القطع المتوسط.